حجاجية الأساليب البلاغية عند شعراء بني حمود

م.م صابرين خلف حسين
أ.د رعد ناصر مايود
جامعة واسط/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

ملخص البحث:

كما هو واضح لدينا أن البلاغة وسيلة جمالية هامة في الشعر، إذ كان الشعراء كثيري الاحتفاء بها في قصائدهم لما تحققه من جمالية في النص من جهة، وما تنجزه من إقناع لدى المتلقي من جهة أخرى. ومن أشهر الأساليب البلاغية إقناعا واستمالة للمتلقي هي التشبيه والاستعارة والكناية، فالكلام من خلال هذه الوسائل يعد أكثر إقناعا من الكلام العادي، وتعد الاستعارة من أكثر الوسائل البلاغية إقناعا وتأثيراً؛ لما تقوم عليه من عرض الحجة والدليل المقنع. فالكلام من خلال الوسائل البلاغية هذه يحمل المتلقي على الإقناع والقبول أو يحمله على زيادة درجة قبوله واقتناعه.

Apstract

Arguments of rhetorical methods for the poets of Bani Hammoud

It is also clear to us that rhetoric is an important aesthetic method in poetry, as poets used to celebrate it often in their poems because of the aesthetics it achieves in the text on the one hand, and the persuasiveness it achieves to the recipient on the other hand. Among the most famous rhetorical methods that are persuasive and appeal to the recipient are simile, metaphor, and metonymy. Speech through these means is more convincing than ordinary speech, and metaphor is one of the most convincing and influential rhetorical means; It is based on the presentation of the argument and convincing evidence. Speaking through these rhetorical means leads the recipient to persuasion and acceptance, or leads him to increase the degree of his acceptance and conviction.

مقدمة البحث:

كما هو معروف أنّ البلاغة وسيلة مهمة من وسائل الإقناع؛ وذلك لغايتها الإقناعية التأثيرية في المتلقي، فالمتكلم عندما يريد أيصال فكرة ما ويريد أن يستميل بها المخاطَب، أو يزيد درجة إقناعه، فإنه يميل إلى أن ينمق كلامه ليضمن له القبول من السامع، ويحمله على الاقتناع به، فهنا يكون

اللجوء للبلاغة وأساليبها، فهي كما عرفها السكاكيّ "بلوغ المتكلّم تأدية المعاني حدّاً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[١]. وهي منذ نشأتها الأولى مرتبطة بالحجاج كما بين، أرسطو قائلا أنّها" الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان" فالمهمة الأولى للبلاغة هي حمل المتلقي على الإقتناع بما يطرح عليه من موضوعات وأفكار.

فالبلاغة، كما هو معروف لها وظائف جمالية إمتاعية ووظيفة تأثيرية إقناعية أخرى، "والأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي، ليؤدي، لتؤدي وظيفة إقناعية استدلالية، من هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية"[٢]، فاللجوء إلى الأساليب البلاغية من تشبيه وكناية واستعارة يعدّ وسيلة ليكون للكلام فرصة أكبر في القبول من المتلقي. فالبلاغة، كما وصفها أحد النقاد سلاح خطابي ذو حدين، فهي زينة أسلوبية، وهي قوة وطاقة حجاجية و إقناعية، تؤثر في قلب السامع وعقله، في آن واحد، بما تتضمنه من أساليب ووسائل متنوعة الغايات من إظهار وتأثير وإقناع واستمالة[٣].

حجاجية الأساليب البلاغية:

أولا: حجاجية التشبيه

اتفق القدماء والمحدثون على أهمية التشبيه، وقدرته على التأثير ويرون أنّ له أثراً فاعلاً في زيادة درجة الإقناع والتأثير. وقصر القدماء وظيفة التشبيه على الإيضاح أو المبالغة والغلو أو الإيجاز، ومن القدماء عبد القاهر الجرجاني إذ قصر وظيفته على التأثير في نفوس السامعين، والقدرة على الاختصار والتأليف والجمع بين المتنافرات، إذ يدهش التشبيه النفوس وينال إعجابها ويجعلها تنفعل وتتأثر، أمّا المحدثين فقد رأوا أن القدماء ظلموا التشبيه بعنايتهم بفروعه وتقسيماته، إذ كان تركيز المحدثين على المتلقي، وما يخلقه التشبيه في نفسه من سمات شعرية وأفكار وأخيلة، إذ يرون أنَّ له وظيفة نفسية شعورية تخاطب وجدان المتلقي[٤]. ولا مناص من الإقرار أنّ الكلام القائم على المجاز يكون ذا قوة حجاجيّة أعلى من الكلام العادي ومن الصور الحجاجية التشبيهيّة المتأتية من صورة التشبيه البليغ ما قاله إدريس بن يمان اليابسي في مدح ابن حمود:

(من الطويل)

"سرَتَ في قميصِ الصبحِ وهو جسيدُ فأبلَتْ قميصَ الليلِ وهو جديدُ
حبابٌ ولكن ليسَ يثنيه ذائـــــــدٌ عبابٌ ولكن ليس منه سـدودُ
فتى يخرقُ الأغيالَ وهي أسنـــــةٌ ويقتنصُ الأبطالَ وهي أسـودُ"[٥]

صورة تشبيهية مليئة بالتشبيهات البليغة التي لها القدرة الكبيرة على شد انتباه المتلقي، إذ جاء التشبيه البليغ بطرفين أحدهما ماديّاً وثانيهما ورد معنويّاً، إذ شبّه الصبح والليل بمشبه به واحد وهو القميص، إنّ تكرار التشبيهات البليغة في هذه الأبيات دليل على أنّ الشاعر كان ينوي التأثير بالإيجاز على المتلقي، فحذف أداة التشبيه ينقل المشبّه إلى رتبة المشبّه به في السمات على الرغم ما بينهم من تفاوت واختلاف، وهذا التشبيه وسيلة إقناعية اعتمدها الشاعر للتأثير على خيال المتلقي.

ومن التشبيه قول إدريس بن اليمان اليابسي: **(من الكامل)**

"سارٍ وغادٍ بالجيادِ كأنّها لججٌ وأكبادُ العداةِ سواحلُ

وكأنّما الآجالُ فوقَ رماحهِ وُرقٌ على شجرِ الأراك هوادلُ

الخاطفاتُ أسافلاً وأعالياً فكأنّهنّ ضراغمٌ وأجادلُ

يلوي القنا في نحرِ كلِّ مدججٍ لياً كما قتلَ السوار الفاتلُ

بأساً كما نزلَ القضاءُ بديرةٍ رأيٌ كما صقلَ الحسامَ الصاقلُ

وإذا شراب القومِ كان منيةً لم يدنُ من تلك المدامةِ واغلُ"[٦]

نلاحظ في البيت الأول أن الشاعر قد رسم مشهداً مهولاً إذ شبه الخليفة وهو يقود جيشه، بلجج البحر العريض المخيف، وهذا البحر يرتقع ويسير على أكباد العدى، إذ شبه أكبادهم بالساحل، وفي البيت الثاني شبّه أعداءه بشجرة الأراك المتناثرة الأوراق فوق رمح الخليفة وجيشه، وفي البيت الثالث شبّه رماحه بالأسود والصقور إذ يخطفنّ العدا من الأعلى والأسفل في قوله(الخاطفات أسافلاً وأعالياً)، فهنا نلاحظ قوة التشبيهات ورصانتها وشدتها إذ صورت المشهد الحربي خير تصوير ومدى شجاعة ذلك الجيش ودقة تصويب الرماح، وهذه كلُّها إن دلَّت على شيء فهي تدل على شجاعة القائد وبأسه في الحروب وضعف الخصم أمامه مهما كانت قوته.

ثم ينتقل في البيت الرابع ليصف بأس القائد وشجاعته، أمّا رأيه فشبهه بالحسام الصاقل، تكاثفت التشبيهات وتداخلت ، وجعل الشاعر كل هذه المعاني تبدو مرئية شاخصة للعيان، فهذه كلّها حجج وبراهين تثبت للمتلقي شجاعة الممدوح ،فلا يستطيع أن يحيل عنها، فالشجاعة في الحموديين موروثة من الآباء والأجداد بدليل كلمة وغل التي لها أكثر من معنى، ومن معانيها أنّ الوغِل هو من يدعي نسباً ليس منه، فالشجاعة هنا صفة متجذرة بهم. فالتشبيهات حولت المعاني الذهنية إلى صور حسية وليس أي صور، وإنّما صور حربية، وهي أشد ما تكون عليها الصور شدة وعنفاً فهنا يكون تأثيرها على المتلقي كبيراً ومقنعاً.

ومن جهة أخرى، فإنَّ التشبيهات هنا جاءت من غير أن يذكر الشاعر وجه الشبه ، وهذا سيزيد النص قوة حجاجية، إذ يفتح المجال للتأمل والتأويل والتفسير، فعندما يفكر المتلقي ويحيل فكره في النص، ولا يصل إلى مبتغاه مباشرة، ويبذل جهداً في تحليل النص، فهنا سيكون اقتناعه أكبر، ولا يستطيع مجافاة النص دون القبول به والميل نحوه، فغياب وجه الشبّه زاد النص قوة.

ثانياً- حجاجية الاستعارة:

إنّ للاستعارة عناية بالغة لدى صنّاع القصيدة وذلك لما تحدثه من جمال في هيكلية القصيدة، إذ كانوا كثيري الاحتفاء بها. وكذلك للاستعارة عناية بالغة في حقل الدراسات البلاغية والنقدية لكونها عنصراً بارزاً من عناصر البلاغة القديمة والحديثة.

وتتصف الاستعارة بأنّها أكثر الوسائل البلاغية والتقنيات الحجاجية من حيث القوة الحجاجيّة، فهي أكثر حجاجية من الأقوال العادية، إذ لو أدرجنا الوسائل الأخرى على سلمٍ حجاجي، لكانت الاستعارة أعلاها، فالسَّلم الحجاجي كما بينا يتّصف بأنّ كلَّ قول فيه أقوى من القول الذي يسبقه، فالأقوال تزيد القوة الحجاجية بطريقة تصاعدية، والاستعارة تكون في أعلى مراتب السلم الحجاجي(٧).

ومن الأمثلة التي جاءت فيها الاستعارة متضمنة قوة حجاجية ما قاله ابن دراج القسطلي في مدح ادريس بن علي بن حمود وأبوه علي بن حمود فقد قال :

(من الطويل)

"هِلالٌ بنورِ السَّعْدِ والحَقِ مُقْمِرُ أَهلَّ عَلَى الإسلامِ أَللهُ أَكْبَرُ

أَغَرُّ نَما فِي الغُرِّ من آلِ هاشِمٍ ووافى بِهِ يومٌ أَغَرُّ مُشَهَّـرُ

بِهِ زِيدَ فِي آلِ النَّبـــيِّ مُحَمَّـــدٍ حسامٌ وبَحْرٌ بالنَّدى يَتَفَجَّـرُ

فَأَدْرَكَتِ الآمالُ غاياتِ سُؤْلِهـــا وأُعْطِيَتِ الأَيَّامُ مَا تَتَخَيَّـــرُ

وقامَ سريرٌ للخلافَـــةِ ثابِـــتٌ وسَرْجٌ ومِحْرابٌ وتاجٌ ومِنْبَرُ

فَدُومُوا لهذا الدِّينِ حِصْناً ومَوْئِلاً فأَنْتُمْ لَهُ عِزٌّ وذِكْرٌ ومَفْخَـــرُ"(٨)

ففي البيت الأول استعارة واضحة، فالسعد معنويٌّ وجعل له صفة حسيّة ووصفه بأنّه قمرٌ منير، وختم البيت بقوله(الله أكبر) فأعطتْ للبيت قوة بالغة من حيث الوزن ومن حيث المعنى إذ زادته توكيداً وقوةً. وكذلك في البيت الثالث في قوله(وبحرٌ بالندى يتفجرُ).

وكذلك في قوله(فأدركت الآمالُ غاية سؤلها) هنا استعارة زادت الكلام قوةً وبياناً إذ استعار للآمال صفة من صفات الإنسان وجعلها مدركةً للغايات وجسدها. وكذلك الحال في قوله(وقام سريرٌ للخلافة ثابتٌ) فقد استعار للخلافة وهي شيء معنويٌّ صفة من صفات الشيء الحسيّ (السرير). وكذلك في البيت الأخير في قوله(فدوموا لهذا الدين حصناً) جعل الدين بمثابة البلد والممدوح له حصنٌ. فنلاحظ أنّ هذه الاستعارات المتتالية في النص أغنته بالقوة الحجاجية وزادت توكيد المعاني التي عرضها الشاعر وزادتها التصاقاً بالممدوح مما يزيد درجة اقتناع المتلقي بها.

ومن الأمثلة الأخرى على حجاجية الاستعارة هو ما قاله المالقي: **(من الكامل)**

"ضحكَ الزمانُ إليك بعد عبوس ونفى دُجى الايحاش بالتأنيسِ

فأدِرْ نجومَ الراح في فلكِ المنى وتطوفَ نحوكَ من أكفّ شموسِ

في روضةٍ تُحيي النفوس كأنّما باتت تنفسُ عن عُلا إدريسِ

من دوحة الوحي التي بسموّها درستْ معاني الكُفر أيَّ دروسِ

ملكٌ أقامَ الله دولة مُلكه فبكى من الأعداء كلُّ رئيسِ"(٩)

تنطوي هذه الأبيات على نتيجة وهي أن هذا الملك أو هذه الخلافة ، قامت بأمر الله، ثم يتوجه لسرد الحجج الداعمة لرأيه ليتحقق من إقناع المتلقي' إذ يبدأ بتقديم الحجج ففي البيت الأول يقول (ضحك الزمان إليك) وهي استعارة مكنية جسدتْ الزمان وجعلته فرحا لقدوم الممدوحً في صورة حركية مرئية لتشده نحو الطرح الحجاجي، وإنّ كل الزمان استبشر بخلافته، والدجى وما فيه من ظلمة وسواد تحول إلى استئناس، وفي البيت الثاني يضفي عليه صفات قدسية تدلّ على العظمة والسلطة والتمكن، وكأنّه مركز الكون يدير النجوم وتطوف الشمس حوله، لأنّه مأمور بأمر الله وخلافته وملكه يستمده من الله في صورة تشبيهيّة مائزة، ثم تسلسل الحجج في سلّمية واضحة.

فجاءت(ضحك الزمان) استعارة مكنية ،إذ شبه الزمان بالإنسان واستعار له سلوكاً إنسانياً وهو الضحك، إذ شبه الزمان بالإنسان ثم حذف المشبه به، وترك صفة من صفاته، أو ما يسمى في الاستعارة لازمة من لوازمه.

ثم في البيت الثالث (من دوحة الوحي) وهي كناية عن امتداد نسبهم لرسول الله (ص) لتكون دالة حجاجية على أحقيتهم في وراثة الخلافة. والذي يقصده هنا الممدوح آل بيته يصفهم بالدوحة " الشجرة العظيمة المتسعة من أي الشجر كانت والجمع دوحٌ وأدواحٌ.. وكل شجرة عظيمة دوحة"(١٠)، فالمقصود هنا ليس وحده وإنّما امتد الوصف للرسول(ص) بدليل المضاف إليه(الوحي) . وقوله

"(درست معاني الكفر)" فهذه حجة أنّهم هم المؤمنون ومن خاصمهم مشرك ، فهذه كلها إشارات يمكن أن نستشف من ورائها معاني خفية. فهذه السلّمية الحجاجية التي جاءت في صورة استعارات وتشبيهات يراد بها نتيجة وغاية وهي أنّ الممدوح مؤيد بأمر الله فهو الضاحك وعدوه باك. فجاء النص مليئا بالطاقة الحجاجية الإقناعية ليس لكونها مدحاً يمكن أن يكون المادح بالغ به ، بل لأنّها مليئة بحجج ومسلمات لا يمكن الشك فيها فهو ريثما يقول أن أمره من الله وأنّه حفيد الرسول، فهذه كلها مسلمات إقناعية لا يمكن للمتلقي الوقوف حيالها من دون أن يقتنع بها أو يتأثر بها.

ويحاول الشاعر اغراق النص بمجموعة من الصور الاستعارية لتكون فاتحة لدخول الحجاج القامع لمن ادّعى بعدم أهلية الممدوح للخلافة(فحل الزمان) لتبين التشخيص المشخص للاستعارة المكنية التي تبين رجوع الخلافة لأصاحبها عبر اللفظة المتضادة (عبوس) التي توحي باغتصاب الخلافة.

ويلح الشاعر باستعمال السَّلم الحجاجي الاستعاري الذي يثبت حقهم في الملك (تحيي النفوس) و(درست معاني الكفر) التي توحي بالحجة التي أرجع فيها الخلافة لأصحابها حتى تأتي قمة السلم الحجاجي(ملك اقام الله دولة ملكه) لتكون لفظة الأحقية للموروث الديني بحق الخلافة في علي(عليه السلام) وأهل بيته موحياً لكونهم من نسله ومحاججاً بذلك.

ومن صور الاستعارة التي تضمنت قوة حجاجية ما قاله ابن دراج القسطلي مادحاً الخليفة المهدي: **(من الكامل)**

"قُل لِلخلافة قَدْ بلغْتِ مُنـــــاكِ ورَأَيتِ مَــا قَرَّتْ بِهِ عَيْنـــاكِ

مَهْديُّ أُمَّة أحمدٍ وكريمُهـــــا وحليمُها يأْوي إِلَى مـــــأواكِ

وسليل نفس إمامهـا وشهيدهـا قمريك في الدنيا، وما قمـراكِ!

ماكنتِ قابلةً سواه ولــم يكـــنْ يوماً يريدُ حياتَـــه لسـواكِ

ولكم شجاه منكِ في جنح الدجى إعوال محـــــزونٍ وزفرةُ باكِ

وأَباح كُلَّ حمىً لكُلِّ مُضَـــــلِّل غَاوٍ أَباحَ حمى الهدى وحماكِ

فشفى نفوس المسلِمين ونفسَـهُ لمّا سقى الدنيا دماءَ عـــداكِ

بشهيد آل الله والمَلِك الَّـــــذِي لا كُفْءَ من دمه الكريم الزاكي

لَبِسَتْ عَلَيْهِ الأرضُ ثوبَ حِدَادِها وبدت نجومُ الليلِ وَهْيَ بَــوَاكِ

حتى اجتلَوْا قمر الخلافةِ حولَــهُ أَمثالَ زَهْرِ كَواكبِ الأَفَـــــلاكِ"(١١)

لعل هذا يذكرنا بما قاله ابو العتاهية في المهدي العباسي : **(من المتقارب)**

"أَتَتهُ الخِلافَةُ مُنقـــــــــادَةً إِلَيهِ تُجَرِّرُ أَذيالَهـــا

وَلَم تَكُ تَصلُحُ إِلّا لَـــــــهُ وَلَم يَكُ يَصلُحُ إِلّا لَها"(١٢)

جاءت الأبيات مليئة بالاستعارات والأساليب البلاغية الأخرى، وقد نجحت في تأدية وظيفتها الحجاجية، ففي البيت الأول في قوله(قل للخلافة) وقوله (قد بلغت مناكِ) هنا استعارة مكنية إذ استعار للخلافة والحكم صفة من صفات الانسان وأنسنَ الخلافة وجعلها كائناً حياً يسمع القول ويتمنى وينال مناه، فشبهها بمن يبلغ المنى ويرى وتقرّ عينه وهو الإنسان، ثم حذف الإنسان وابقى لازمه وهي بلوغ المنى والرؤية والاطمئان (قرت عيناك).

وفي البيت الثاني(مهدي أمة أحمد وكريمها) هي كناية عن موصوف أكدت المعنى بأنّه مهدي الأمة بأجمعها، وكذلك قوله في البيت الثاني(وسليل نفس إمامها وشهيدها) أيضا كناية عن موصوف زادت المعنى تأثيراً وإقناعاً، وقوله (قمريك في الدنيا) هنا جاءت استعارة تصريحية إذ شبّه المهدي بالقمر وجاء بالمشبه به وحذف المشبه فتحول التشبيه إلى استعارة تصريحية زادت المعنى قوةً وإقناعاً.

وفي البيت الرابع في قوله (ماكنتِ قابلة سواه) أيضا جاءت استعارة مكنية إذ استعار للخلافة صفة من صفات الإنسان وهي القبول والاستساغة وأنّ الخلافة لم تقبل بأحدٍ سواه والمهدي أيضا ما كان يريد أن يفني حياته إلا في الخلافة، وفي البيت التالي قوله(ولكم شجاه منكِ في جنح الدجى) أيضا استعارة إذ استعار للخلافة صفة البكاء وأنّها تبكي المهدي وتري أن تأثر به، واستعارة مكنية أخرى وهي أنه جعل لليل جنحاً.

وفي الشطر الثاني من البيت السادس قوله(غاوٍ أباح حمى الهدى وحماكِ) جاء استعارة مكنية زادت المعنى قوة حجاجية إذ جعل للهدى حمى وهو معنوي، وفي البيت التالي قوله(لما سقى الدنيا دماء عداكِ) هنا استعارة مكنية إذ جعل الدنيا كالإنسان ووصفها بصفة من صفات الإنسان وهي الشربَ. وفي قوله (حتى اجتلَوْا قمر الخلافةِ حولَهُ) وصف لممدوح بقمر الخلافة وهي استعارة تصريحية إذ استعار القمر للممدوح. فقد جاءت هذه الاستعارات التي زرعها الشاعر مليئة بالإيضاحات والحجج المقنعة الدالة على صدق المدح وعملت كوسيلة لشد المتلقي واقناعه بالمضمون والتأثير به.

ثالثاً- حجاجية الكناية:

تعد الكناية أسلوبا مهما من أساليب الحجاج لما تثيره في المتلقي من تأثير عقلي ونفسي، لكونها تعتمد المجاز، وبما أن الكلام المجازي أكثر تأثيرا من الكلام العادي في نفس المتلقي، فالكلام إذا جاء عن طريق المجاز يصبح وسيلة جذب تشد المتلقي أكثر من الكلام الخالي من المجاز ويظل أثرها طويلاً في نفسه.

وما للكناية شأن وحضور واسع في كلام العرب و اشعارهم فالعربي بطبعه ميّال للكلام المزخرف المبالغ به سواء في المدح أو الذم، والكناية احدى وسائل التعبير الابداعي التي أتخذها العربي للتعبير عما يجول في مخيلته ، شأنها شأن باقي الأساليب البلاغية كالتشبيه والاستعارة فهي لا تقل حجاج عنهما.

توقف عند الكناية الكثير من العلماء العرب وقفات طويلة، ومنهم الجرجاني إذ عرفها قائلاً: "الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورفده في الوجود فيومئ به إليه فيجعله دليلا عليه"(١٣).

إذن فالكناية تقدم لنا المعنى مؤكداً قوياً تجعلنا نستميل له ونقتنع به فهو كما وصف " منتزع من تجارب المتلقّين المادية وممارساتهم المعيشية ومشاهداتهم العينية في سلوكهم"(١٤). فكانوا كثيري الاحتفاء بها. ومن أسباب شيوعها ما بيّنه أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين، قائلاً:" ومن البصر بالحجة أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان طريق الإفصاح وعرا؛ وكانت الكناية أحصر نفعا"(١٥).

فالكناية وسيلة من وسائل الحجاج ،ومن ذلك ما بينه الجرجاني في معرض حديثه عنها "أمّا الكناية فإنَّ السبب في أن كان للإثبات المزية، لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم –إذا رجع إلى نفسه– أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها هكذا ساذجاً غفلا"(١٦)، فالكناية تأتينا بالدليل والشاهد والحجة وهذا ما يجعل الكناية وسيلة حجاجية بحتة. ومنها ما قاله إدريس بن يمان اليابسي:

"وللسوسنِ الرّيانِ صفحةُ خدّه وللبدرِ مَجْلاهُ وللمْسكِ ريّاهُ

يُريني إذا ردَّ السلامَ مخالساً بناناً دماءُ العاشقين يرنّاهُ

كأنَّ فؤادي كلّما قام قُرطهُ فيا عُلوَ مرقاه ويا بُعدَ مهواهُ

فريدُ جمالٍ تمّ لي توأمُ الهوى به ولكلِّ العاشقينَ فرداهُ

تكامل فيه السّولُ حتى كأنَّه ندى ابن أبي موسى إذا الشعرُناجاهُ

لقد كانَ معنى الجودِ عُمّي فانبرى له ابن أبي موســـــى ففكَ معمـــاهُ

هصرتْ به الدنيا فمالتْ رطيبـــةً علي ميـوداً تحـــتَ أوراقِ نعمـــاهُ

وما ضحكَ النّوارُ من شقِ جيبـه ولكـــن أياديه التي أضحكَتْ فـــاهُ

وما فتَحتْ أيدي الحيا زهرةَ الربى كما فتحتْ روضُ القريضِ عطايـاهُ

تأملّهُ وانظرْ الباري الأســـــنة سناهُ مضافاً إلى السيفِ الطويلِ نجاداهُ"[١٧]

القصيدة في المدح ويحاول الشاعر ادريس بن اليمان عن طريق الأسلوب المجازي إيقاع المتلقي في التصديق بالدعوى المقدمة من عنده حول الممدوح عن طريق آلية حجاجية ترتكز في بواطنها على مجازية النص وقدرته في تجسيد صفات الممدوح المراد بثّها للملتقى. فتقديم صفات المعشوق الجمالية في بداية القصيدة في نسق مجازي رائع ثم موازنتها بكرم الممدوح ماهي إلا حجاجية مجازية هدفها رصد التأثر الفني ومحاولة إيقاع المتلقي فيه فللوسن الريان خده كناية عن الجمال وعبارة للبدر مجلاه كذاك كناية عن صفة الجمال وتستمر الصور النائية والتشبهية في وصف الحبيبة حتى تصل لقول الشاعر (تكامل فيه... كأنه ندى ابن أبي موسى.) لتكون النقطة التي تدخل في صلب الموضوع الحجاج المجازي المطروح حول الممدوح، فجمال الحبيبة مهما عظم لا يصلُ لجمال كرم الممدوح. وعن طريق الموازنة يظهر الرصد عبر قابلية الفهم للموضوعة(فجمال الحبيبة زائل وجمال كرم الممدوح ممتد الأثر) وتستمر الصور المجارية الكنائية التي ترصد حالات الكرم الجمالية بتقلب معادلة الطرح وتعلي الجانب الثاني الممدوح عبر(كان معنى الجود.. هصرت بك الدنيا وطيبة) وما هذا الانثيال المجازي الا لإركاز صفة المحاججة بعلو الممدوح. ثم لا يلبث أن يتمحور الشاعر في عالم من الوهم، ويستغل الطاقات البلاغيّة للأساليب الداعمة لمدعاه من خلال المجاز المتداخل بأسلوب البديع. في قوله:

"**وما ضحكَ النّوارُ من شقِ جيبه ولكنْ أياديه التي أضحكَتْ فاهُ**"

فالنوار هو ورد متفتح جميل، فجعله الشاعر انسانا فتح فاه من تعجبه لعطاء الممدوح، فجاء بالاستعارة متداخلة مع حسن التعليل، إذ ارجع سبب تفتح النوار، لسبب وهمي، وهو التعجب من فيض الممدوح وكثرة نداه. وبذلك كانت الوسائل المجازية معطيات قادرة على تلوين الطرح الحجاجي بمواطن الجمال ونقله بصورة مؤثرة للملتقى وفق آلية الرصد الجمالي.

ومن صور الكناية التي لها أبعاد حجاجية قصيدة لعبادة بن ماء السماء يقولها مادحاً علياً بن حمود يقول في بعض منها: **(من الوافر)**

"أطاعتكَ القلوبُ ومن عصِـــيٌّ وضرْبُ الله ضربُكَ يا عليٌّ

فكلٌّ من ادّعى مَعْكَ المعالـــي كذوبٌ مثل ما كذب الدعيٌّ

أبى لكَ أن تهاض علاكَ عهدٌ هشاميٌّ وجدٌّ هاشمـــــــيٌّ

وما سمِّيت باســـــمِ أبيكَ إلاّ ليحيا بالسميِّ له السمـــيٌّ

فإن قالَ الفخورُ أبي فـــلانٌ فحسْبُكَ أن تقولَ أبي النبيٌّ"(١٨)

فهنا نستشف قوة الأقوال الحجاجية التي وظفها الشاعر للمفاخرة بنسب الممدوح وأنه مؤيد بالله اولاً، فبدأ الشطر الأول بالفعل الماضي (أطاعتك) ولم يقل تطيعك، لأن الماضي يدل على وقوع الفعل وتحققه وثبوته، ثم في الشطر الثاني(وضرب الله ضربك) هنا تكرر المصدر لإغناء الدلالة وإعطائها قوة تأثيرية يضاف إلى كاف المخاطب التي تعود للممدوح واتصالها بالمصدر زاد المعنى قوة ورسوخا، وهذه تقنية حجاجية لغوية واضحة، وقد جاء قوله(ضرب الله ضربك) من باب التشبيه الذي جاء بالمصدر الذي عمل على السرعة التي تتناسب مع حالة رد الاعداء وبالغ وأعطى لممدوحه هالة من القداسة عبر تقديم ضرب الله وجعلة الممدوح وسيلة الله سبحانه وتعالى وسيفه في سحق اعدائه، وهي أيضا كناية عن صفة الدين والقرب من الله.

وفي البيت الثاني (وكل من ادّعى معك المعالي) فهنا عبر المعنى العام للقصيدة والجو العام للمادح والممدوح يقصد من ينافسه على الخلافة، فيصف الشاعر بعدها من ينافسه (كذوب مثلما كذب الدعي)، فقد عدل عبادة عن (كاذب) إلى (كذوب) والعدول إحدى تقنيات الحجاج اللغوية، وفائدته أن كذوب صيغة مبالغة ودلالتها أقوى من كاذب إذ تدل على المبالغة في الكذب.

وذكر في الشطر الثاني من البيت الثالث (هشاميّ وجد هاشميّ) هنا الهشامي صفة ويراد بها السخي والكريم ، إذ ذكرنا آنفا علي بن حمود عرف بكرمه وسخائه على الرعية ولا سيما الشعراء. ويذكر الشاعر أنَّ الممدوح جمع بين ميزتين أنّه هشاميّ وهاشمي، وبالإضافة إلى قوة المعنى يضاف أن الموسيقى وتلاؤم الكلمتين أعطت قوة بالغة وترسيخا للمعنى نظرا لتكرار أغلب حروف الكلمتين وما للتكرار من بعد حجاجي فهو أيضا تقنية حجاجية لغوية إضافة لتركيزه على حجة النسب.

ويكرر في البيت الرابع (وما سميت) و(باسم أبيك) و(بالسمي) و (له السمي)، تكرار لفظي تكررت نفس الكلمة كلها دلت على المبالغة والعناية في اسم الممدوح ونسبه لأن الممدوح ومن غيره من بني حمود كانوا شديدي التمسك بنسبهم والاعتداد به. حتى يصل عبادة إلى النتيجة ، ثم يأتي

بحجة أقوى من الحجج السابقة قائلا: (فحسبك أن تقول أبي النبي) هي كناية عن صفة القرب بالنسب لرسول الله (ص).

ومن صور الكناية التي جاءت عند شعراء بني حمود وزادت كلامهم قوةً وتأثيراً ما قاله إدريس بن اليمان اليابسي مادحا إدريسا بن علي بن حمود:

(مجزوء الخفيف)

"لا تلــمْ فـــي مــدادهِ بــدمِ القلــبِ يُكتـــــبُ

إنّ إدريسَ ماجـــــدٌ للعـــــلا فـيه مذهـــبُ

جدُّه خاتمُ الهُـــــدى وعلـــيُ لـــــه أبُ

فهو للمجـــــدِ مطلعٌ وهو للمــجد مَغـــــربُ"(١٩)

ففي البيت الأول جاءت استعارة في قوله (مداده) و(دم القلب) أي إن مداد قلمه هو دم قلبه وهنا يصور شدة حبه وصدقه في الحب في آن واحد ، ثم في البيت الثاني يصفه بأنّه (ماجد) وهذه كناية عن صفة، فذهن المتلقي سينتقل إلى إدراك معانٍ عدة من كلمة ماجد من التمام والكمال والتناهي في الشرف والخير والسخاء وغيرها من الصفات الحميدة، فهنا يخاطب السامعين أن يلوموه في الخليفة، ثم يستطرد في ذكر صفاته إي يستطرد في تقديم الحجج الدالة على أنّه يستحق الإجلال والحب، ثم ينتقل لنسبه (جده خاتم الهدى) و(علي له أبّ) وهذه حجة أقوى كان الشعراء يكثروا من التركيز عليها لشدة تأثيرها وشدة استساغتها من قبل الحموديين أنفسهم.

وفي البيت اللاحق فهو (للمجد مطلع) ومثلها وهو (للمجد مغرب) ففي الأولى كناية أن المجد ابتدأ منه ومن أجداده لأنه ذكرهم في البيت السابق، في قوله(للمجد مغرب) كناية عن أنّ المجد ينتهي معهم ويغرب بغروبهم. فنلاحظ هذه الأوصاف وهذه القوة الحجاجية جعلت الكلام أقوى وأشد، فالحجاج هنا يكمن في جعل الكناية تقوم على الموروث المذهبي الذي يرجع الخلافة للإمام علي (عليه السلام) وولده وهم من ولده. ويمكن أنْ نقول: إن هاتين العبارتين(للمجد مطلع) و(للمجد مغرب) هما البؤرة التي يقوم عليها المعنى الكنائي في هذه الأبيات وهو النتيجة التي يريد إثباتها وما تقدم ذكره في الأبيات السابقة من (إدريس ماجد) و(جده خاتم الهدى) و(عليّ له أبٌ)هو حجج وأدلها تثبت دعواه وصدق حجاجه.

وفي النص أتتْ لا الناهية في قوله(لا تلم) بمثابة الطرح الأول المهيء للحجاج الذي ينفي كل شك عن الممدوح والطرح ثم تحيله للتأبيد ولعل عبارة (بدم القلب يكتب) لتمثل حرارة الحجاج

فهنا صورة كنائية تبين الطرح الحجاجي ويدخل الممدوح (ادريس) ليضع المتلقي في الطرح الحجاجي الكنائي الذي يثبت الجدارة له بواسطة عبارة (جده خاتم الهدى) (عليٌ له ابُ) وتلك عبارات كنائية حجاجية تبين علو المنزلة ودرجة الاستحقاق الكبرى التي تكون للممدوح أحقيةً بالخلافة انطلاقاً من الموروث القرآني في قوله تعالى "**{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}**"[٢٠].

ثم يأتي التضاد ليحاكي القيمة الحجاجية العليا(للمجد مطلع ، للمجد مغرب) لتبين امتداد النسب والاصالة والتفرد والاستحقاق.وقوله في إدريس العالي بالله:

(من المنسرح)

"**إنّما العالي إمامُ هـــدًى حَليَتْ في عصرهِ الحـــــالُ**

ملكٌ إقبالُ دولتـــــــه لذوي الإفهامِ إقـــــــبالُ

قل لمن أكدَتْ مطالبُـــهُ راحتاه الجاه والمـــــــال"[٢١]

ففي قوله (إمام هدى) كناية عن الورع والتقوى، وما تحمله كلمة هدى من معاني الهداية والاستقامة، هذا من جهة ومن جهة أخرى إذ كان الممدوح هنا على هدى فمن المؤكد أن يكون خصمه على ظلال. ثم في البيت الثاني يأتي بكلمة (ملك) وهذه الكلمة وما شابهها من خليفة وإمام وغيرها كثيرة الورود في قصائد شعراء بني حمود جيء بها لتثبيت فكرة شرعية ملكهم وإمامتهم. وقوله لذوي (الإفهام إقبال) فهي كناية عن كونهم علماء بلغاء لا ينجذب إليهم إلا ذو فهم .

ومن خصائص الكناية تمكّنها من خصومك بطريق خفي وغير مباشر ومن دون الميل نحو التجريح، وهذه هي مزية الكناية. وفي قوله (راحتاه الجاه والمال) فهنا كناية عن المكانة العالية والشرف والكرم والسخاء، فهي كناية عن صفين متلازمتين بدليل قوله راحتاه وهما راحتا اليد، فهما قريبان منه ومتلازمان معه كراحتيه، وهذه كناية عن نسبة فبدل من أن يصفه بالكرم نسب الجاه والمال لراحتيه.

إذ يحاول الشاعر استخدام أسلوب القصر(انما العلي امام الهدى) قاصراً ممدوحه محاولاً اثبات سبب منطقي لاسمه فقصره على (امام الهدى) التي تحمل بعداً كنائياً يتجذر من نسبه العلوي الشريف فتكون الحجة عقلائية باستمرار الهدى بدليل قوله(ملك اقبال دولته لذوي الافهام اقبال) فالمحاكاة الحجاجية والطرح المتقدم عقلائي قائم على المنطق بدليل قوله تعالى (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[٢٢].

كلمات مفتاحية:

بنو حمود، الحجاج، البلاغة ، الاستعارة، الكناية،

هوامش البحث

(١) مفتاح العلوم ، السكاكي ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية بيروت ،ط ١، ٢٠٠٠م: ٤١٦، ٤١٧.
(٢) التداولية والحجاج ومداخل ونصوص، صابر حباشة: صفحات للطباعة والنشر سوريا ، ط ١ ، ٢٠٠٨ : ٥٠.
(٣) ينظر: الدرس الحجاجي في نظرية تحليل الخطاب" دراسة تطبيقية في سورة يوسف من خلال تفسير ابن عاشور"، خالد دلكي وأحمد أبو دلو: بحث ،مجلة المنارة الأردن ، المجلد/٢١، العدد/٣، ٢٠١٥: ٤٠.
(٤) ينظر: بلاغة التشبيه في النقد العربي القديم والحديث، عبد الرحمن حجازي: ١٢٦ وما بعدها.
(٥) شعر إدريس بن اليمان: ٢٣٧، ٢٣٨.
(٦) شعر ادريس بن اليمان :٢٥١، ٢٥٢.
(٧) ينظر: حجاجية الاستعارة في شعر النقائض جرير وفرزدق أنموذجا، فريدة بن عاشور، جامعة الأخوة مندوري، قسنطينة: بحث، مجلة العلوم الإنسانية، العدد/٤٦، ديسمبر، ٢٠١٦، المجلد الأول: ٣٧٦ ، ٣٧٧.
(٨) ديوان ابن دراج :٦٩٩.
(٩) من أعلام مالقة، أبو محمد غانم بن الوليد القرشي المالقي: ١٠٥، الذخيرة ،ق٢/مج١ :٥٣٨، ٥٣٩.
(١٠) لسان العرب: مادة دوح.
(١١) ديوان ابن دراج القسطلي: ١٣١ وما بعدها.
(١٢) ديوان ابي العتاهية ،تحقيق حنا الفاخوري ، دار الجيل بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ : ٢١١.
(١٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه أبو فهر /محمود محمد شاكر ،دار المدني بجده، ط٣ ،١٩٩٢: ٦٦.
(١٤) الحجاج في القرآن: ٥٠٠.
(١٥) كتاب الصناعتين، ابو هلال العسكري:١٥.
(١٦) دلائل الإعجاز، الجرجاني : ٥٤.
(١٧) شعر ادريس بن اليمان : ٢٥٩.
(١٨) شعر عبادة بن ماء السماء: ٣٤.
(١٩) من أعلام مالقة ، ابو محمد غانم بن وليد المالقي :١٢.
(٢٠) سورة المائدة: الآية ٥٥.
(٢١) نفح الطيب ،ج٣ :٦١٥. لم تذكر الابيات في مجموع شعره من اعلام مالقة ابو بكر بن الولي المالقي
(٢٢) سورة آل عمران: الآية ٣٤.